كلمة أخيرة

عندما تركت المدرسة الثانوية في بريطانيا عام 1968م، التحقت بالجامعة، وبضربة حظ لا تفسير لها، وجدت نفسي في بريتون هول، تلك الكلية المشهورة بالفنون الحرة وفنون الأداء في وست رايدنج في يوركشاير؛ كانت بريتون جوهرة في تاج منطقة تعليمية متميزة يقودها السير أليك كليغ Sir Alec Clegg، ذلك الرجل الذي لا يمكن أن نوفيه قدره، فهو من رواد التحول في التعليم العام. كان حسن الحظ من ثلاثة أوجه: على رأس بريتون عالم شاب ذو ذكاء ثاقب وهو الدكتور ألين ديفيز Dr. Alyn Davies، وكان رائدًا تربويًّا شحذ ذكاء هيئة التدريس والطلاب وحساسيتهم، بسحر شخصيته ومعرفته الواسعة وكياسته.

وكان بالكلية حشد من أعضاء هيئة التدريس أصحاب الشخصيات المتفردة والمليئة بالشغف الذين استدرجونا كلٌّ بطريقته، وشجعونا لنخرج خير ما عندنا. أما الطلاب فكانوا حشدًا مفعمًا بالطاقة والمواهب والدافعية، حتى وجدنا أنفسنا منغمسين بعمق، ولسنوات عدة، في رفقة بعضنا حول بيت كبير وسط مئات الأفدنة من أروع ما يوجد في الريف البريطاني، وكان ذلك بالمجان، بفضل سياسات حكومة مستنيرة في ذلك الوقت، وأنا أعرف ذلك.

تخرجت بدرجة جامعية في التربية، ومؤهل لتدريس اللغة الإنجليزية والدراما، في المدارس الابتدائية والثانوية، وفي هذه المسيرة تعلمت من عدد من خيرة من عرفت من المعلمين، وعملت مع عدد من أكثر من عرفت من الطلاب موهبة، ودرست في عدد من أهم المدارس التي رأيتها وأكثرها إبداعًا، ووجدت نفسي في خضمِّ اضطرابات التعليم العام، حتى آمنت بضرورة جعل التعليم شخصيًّا.

ربما تبدو المطالبة بتفريد التعليم أمرًا ثوريًّا، لكن هذه الثورة ليست جديدة؛ فجذورها عميقة في تاريخ التعليم، فقد دعا جون لوك في القرن السابع عشر إلى تربية الجسم والشخصية والعقل في آن واحد؛ أي الإنسان كله، وأيضًا حمل أفراد كثيرون ومؤسسات مختلفة شعلةَ صور

مختلفة من التعليم الفردي الذي يسترشد بتطور الأطفال الفطريِّ، و[أعلوا من] أهمية هذه الصور من التعليم لبناء مجتمعات أكثر عدلًا.

ينتمي دعاة وممارسو التعليم الفردي والكلِّي إلى ثقافات عدَّة ورؤى مختلفة، ومن هؤلاء جان جاك روسو ويوهان هينريش بستالوزي Johann Heinrich Pestalozzi وجون ديوي، ومايكل دوين Michael Duane، وكيرت هان Kurt Hahn، وجيدو كريشنامورتي Jiddu Krishnamurti، ودورثي هيثكوت Dorothy Heathcote، وجان بياجيه Jean Piaget، وماريا مونتيسوري، و ليو فيغوتوسكي Lev Vygotsky، وسير أليك كليغ، ونعوم تشومسكي Noam Chomsky، وغيرهم كثيرون، وتجتمع هذه المداخل المختلفة لتمثل مدرسة فكرية واحدة، أو تطبيقا واحدًا، وما يجتمعون عليه هو الحرص على ربط التعليم بطريقة تعلم الأطفال، وما يحتاجون إلى تعلمه ليكونوا من هم.

كانت ماريا منوتيسوري طبيبة ومعلمة. بدأت مسيرتها المهنية في التعليم في سان لورينزو بإيطاليا، في أوائل عشرينيات القرن العشرين، تعمل مع الأطفال الفقراء والمحرومين؛ أكدت مونتيسوري أهمية التعليم المشخصن، تقول: على المعلم أن يلاحظ ما يهتم به الطفل شخصيًّا، وطبيعة هذا الاهتمام ومدَّته، وأن يلحظ تعبيرات وجه الطفل. وعلى المعلم أن يحرص، كما قالت: على ألا ينتهك مبادئ الحرية؛ فإذا دفعت معلمة الطفل إلى بذل مجهود غير طبيعي، فإنها لن تعرف مطلقًا النشاط التلقائي لهذا الطفل[1]، ويوجد الآن أكثر من عشرين ألف مدرسة حول العالم بمنهج مونتيسوري في التعليم[2].

كان رودولف شتاينر Rudolf Steiner فيلسوفًا نمساويًّا ومصلحًا اجتماعيًّا، وضع منهجًا إنسانيًّا في علم التربية، يسمى الآن زمالة مدارس شتاينر والدورف؛ يقوم منهج شتاينر على الحاجات الفردية لكلِّ طفل على حدة؛ أي الأكاديمية والبدنية والعاطفية والروحية. فُتحت أول مدرسة شتاينر عام 1919م، ويوجد منها الآن نحو ثلاثة آلاف في ستين دولة، تستخدم فلسفة شتاينر وأساليبه[3].

الطريف أن شتاينر وضع أيضًا نظامًا خاصًّا في الزراعة العضوية، قائمًا على الأسس البيئية والاستدامة. ويتبع نظامه البيوديناميِّ الدورات الطبيعية للمواسم، ولا يستخدم الأسمدة

الكيماوية أو المبيدات الحشرية -وهي تُستخدم الآن استخدامًا واسعًا في مناطق كثيرة من العالم- إذ تُعدُّ إحدى الممارسات التطبيقية داخل مجال الزراعة العضوية العام.

أسَّس إيه إس نيل A. S. Neill مدرسة سمر هيل Summerhill School في العام 1921م، فوضع بذلك النموذج الذي اتبعته المدارس الديموقراطية كلها، بعده. وفلسفة المدرسة هي «إتاحة الحرية للفرد؛ لأن كل طفل قادر على تحمل مسؤولية حياته، والسعي وراء اهتماماته حتى ينمو ويكون الشخص الذي يتمنى أن يكونه، ويؤدي هذا إلى ثقة داخلية بالنفس، وتقبَّل حقيقي من كل فرد لذاته»[4]. والقائمة تطول.

هذه المذاهب المتعددة في التعلم المشخصن، غالبًا ما تُجمع معًا في عنوان عام، هو (التعليم التقدمي progressive education) الذي يتصور بعض النقاد أنه نقيض (التعليم التقليدي). هذا فهم غير صحيح مدمِّر تشوبه ثنائيات متضادة فاسدة كثيرة. ظل تاريخ السياسة التعليمية يتأرجح بين هذين القطبين، وتمثل حركة المعايير آخر أشكال هذا التأرجح، لكن التعليم الفعال يكون دائمًا نتاج توازن بين الصرامة والحرية، والتقليد والابتكار، والفرد والجماعة، والنظرية والممارسة، والعالم الداخلي والعالم الخارجي.

مع عودة البندول إلى وضعه السابق، كما يحدث دائمًا، تكون المهمة -كما كانت دائمًا- مساعدة المدارس والطلاب على إيجاد التوازن؛ فليس ثمة وضع مثالي دائم للتعليم، بل هو سعيٌ دائم لتهيئة أفضل الظروف لأناس حقيقيين، في مجتمعات حقيقية، في عالم دائم التغيّ، وهذا معنى الحياة في نظام ديناميٍّ معقد؛ الحاجة إلى التعليم ملحة، وخبرة التعليم دائمًا شخصية، لكن قضاياه تضع عموميتها على العالم كله تدريجيًّا.

تعرف الثورات، ليس بالأفكار التي تدفعها حسْب؛ بل بمدى تأثرها، ويتوقف إشعال الأفكار والثورات على الظروف؛ أي هل هذه الأفكار تجد صدى لدى عددٍ كافٍ من الناس في الوقت المناسب، بحيث تدفعهم للحركة؟ أما الأفكار التي وراء الثورة التي أشجعها، فهي موجودة منذ مدَّة طويلة، لكن تقبل الناس لها يزيد حاليًّا والتغيرات آخذة في التسارع.

إن كثيرًا من المبادئ والتطبيقات التي أدعو إليها قد طبِّقت فعلًا وبنجاح، ولو على نطاق محدود طوال تاريخ التعليم، في مدارس عامة، وفي مناطق تعليمية كاملة، وفي مدارس تجريبية ومختبرية، وفي مناطق حضرية ومحرومة، وفي مدارس ريفية خاصة، وحاليًّا تطبق في دولة

كاملة واحدة على الأقل، فما الجديد؟ أولًا، تتغير ملامح السياق الذي نعيش فيه سريعًا، مما يفرض فهم هذه المناهج على النحو السليم وتطبيقها على نطاق واسع. ثانيًا، لدينا الآن تكنولوجيا تتيح شخصنة التعليم بطرائق جديدة تمامًا. ثالثًا، يتوفر حاليًّا دعم كبير ومتزايد وشعور في أنحاء كثيرة من العالم بضرورة حدوث نقلة قاعدية ضخمة في أسلوب تفكيرنا وتطبيقاتنا في مجال التعليم.

تحاول المدارس التي أشرنا إليها في كتابنا هذا جميعًا تقديم نوع من التعليم الصارم والفردي والجاذب الذي يحتاجه الجميع، وقد حُرمه كثيرون لزمن طويل. هذه المدارس جزء من ثورة ممتدة، ينبغي أن تشمل الجميع هذه المرة، ولا تقتصر على فئة مختارة، فالأخطار لم تكن أبدًا أشد مما هي عليه الآن، والنتاجات بالكاد ما عادت مهمة.